مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٤٣ العدد ١
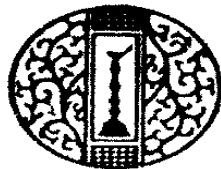
١٩٩٢م

المجلس الهندى للعلاقات الثقافية
آزاد بوان، نيو دلهى
الهند

مجلـــة ثقافة الهند فصليــــة

المجلـــد ٤٣ العـــدد ١

١٩٩٢م

محتويات هذا العـــدد:

الشيخ عبدالحق حقّي المحدّث الدهلوي

بقلم : فضيلة الشيخ نسيم أحمد الفريدي
شيخ الحديث بالمدرسة الإسلامية امروها - آنغا

الأسـرة :

الشيخ عبدالحق بن الشيخ سيف الدين سيفي القادرى بن الشيخ سعدالله بن فيروز الشهيد بن الملك موسى بن الملك معزالدين بن آغا محمد ترك البخاري ... هذا ما كتبه الشيخ المحدّث الدهلوي عن أسرته في كتاب أخبار الأخيار و لا ندري أكثر من ذلك - ورد آغا محمد ترك البخاري مع جماعة كبيرة إلى دلهي في عهد السلطان محمد علاءالدين الخِلجى و عهدت إليه مسئولية فتح ولاية غجرات.

الطفولـة :

وُلد الشيخ المحدث الدهلوي في شهر محرم عام ٩٥٨ هـ (يناير ١٥٥١م) و نعرف من خلال ما سجّل من حوادث طفولته في كتاب عن حياته أنه كان مطبوعاً على الصلاح و التقوىٰ منذ الصغر و لم تبذر وقته في الألعاب مثل عامة الأطفال كما أنه ورث العفة و الطهارة عن أبيه المتدين الورع الذى كامن أتباع الشيخ أمان الله الباني بتي الروحانيين. و الحقيقة أن البركات العلمية و الصفات الروحية الحسنة التي كان يتمتع بها الشيخ الدهلوي لم تكن إلاّ ثمرةً للتربية التي تلقاها من أبيه. و ذكر الشيخ نفسه أن أبويه كثيراً ما كانا يغضبان عليه لعدم اشتغاله بالألعاب مثل أقرانه من الأطفال إلاّ أنه كان توّاقاً إلى العلم، على عكس أولئك الأطفال الذين يمنعهم آباؤهم و أهلهم من الألعاب و لكنهم لا يطيعونهم و لا يمتنعون من اللعب و يهربون من التعليم. لقد ضحّى الشيخ من أجل كسب العلم و المجد منذ حداثة سنه بكل راحته من لقاء الأصدقاء و الذهاب معهم إلى الحدائق و المنتزهات و نادراً ما كان يستطيع أن ينال حظّه من الطعام و النيام في وقتهما المحدّد

التعليـــم :

تلقـى الشيخ التعليم من أبيه و من الأساتذة الآخرين في دلهـى الذين لم نستطع معرفة أسمائهم. و لابدّ أن يكون قد ذكر أسماء أساتذته في كتابه: "*أسماء الأستاذين*". الذي ضاع - للأسف الشديد - كبعض الكتب الأخرى له في ثورة ١٨٥٧م.

أكمل الشيخ دراسته للعلوم العقلية و النقلية غير الحديث الشريف و هو في العام الثاني و العشرين من عمره، ثم حفظ القرآن الكريم في خلال سنة واحدة بعد جهود مضنية حثيثة يصعب وجـود نظيرهـا، و ها هو يروى القصـة بنفسه فيقول:

> "*كانت الليل تمتد و يمر منتصفها و أنا منهمك في دراستي. فكان يزجرني والدي و يقول بلهجة غاضبة ماذا تفعل يا ولد؟ أما نمتَ بعدُ! و كنت ألقى بنفسي فوراً على الفرش حتى لا أكون كاذباً في قولي بأننى مستريح نائم. و بعد قليل من الوقت حينما كنت أجده قد صمت، كنتُ أنهض و أجلس و أبدأ القراءة من جديد، و كان من فرط انهماكي في القراءة أن السراج كثيراً ما امتد لهيبه إلى عمامتي و رأسي و لم أشعر به إلاّ بعد أن صعدت حرارته إلى الدماغ" و ما أحسن قول الشاعر:*

ما فائدة الدخان إذا لم يصعد إلى الدماغ؟
و ما فائـدة الخمر إذا لم يُصب في الكأس؟

وجد الشيخ نفسه تتوق إلى زيارة الحرمين الشريفين بعد الانتهاء من دراسته في دلهي و زواجه، فقام برحلة إلى الحجاز و مكـة المكرمة فـي ٩٩٦ هـ و بعد أربع سنوات قضاها بعيداً عن الوطن، عاد إليه عام ٩٩٩هـ بعد هذه الرحلة المباركة التي اجتمع خلالها بكثير من الشيوخ و العلماء في أرض الحرمين الشريفـين و درس لديهم كتب الصحاح الستة من الحديث، و قد درس "*مشكاة المصـابيح*" لدى أبـي المواهب عبدالوهـاب المتقي و تلقى منه العلوم و الكمالات الروحية التي جعلته يُعرف في الهند بالمحدّث، و كان هو أول عالم ديني عُرف بهذا اللقب و ذاع به صيته في الهند. و خطر ببال الشيخ وقت دراسة *مشكاة المصابيح* أن يترك الفقه الحنفي و يبدأ العمل بالفقه الشـافعي، و لما اطلع أستاذه الشيخ عبدالوهاب المتقي على هذا القصد منعه منه و أرشده إلى الطريق المستقيم و أثبت في قلبه عظمة الإمام أبي حنيفة و مكانته في الفقه و العلم والدين، فامتنع عن فكرته للعمل بالفقه الشافعي و كتب كتاباً ضخماً في تأييد الفقه الحنفي و الدفاع عنه بسم: *فتح المنّان في تأييد مذهب النعمان*، جاء فيه بدلائل و حجج قوية دافعة.

التصوف :

لم يكن الدهلوي يتمتع بالكمالات الظاهرية فحسب بل كان يتمتع أيضاً بمكانة مرموقة في مجال السلوك و التصوف أيضا. و قد أوصاه والده بأن لا يكتفي بالعلوم الظاهرية قطّ، و ربما كانت هذه الوصيّة هى التي دفعته يميل إلى التصوف منذ أن كان في ريعة شبابه.

و قد تلقى التصوف و الكمالات الروحية من هؤلاء الشيوخ الذين نذكره أسماءهم فيما يلي:

١- من والده الشيخ سيف الدين القادري الذي كان من أتباع الشيخ أمان الله الباني بتي في الطريقة القادرية.

٢- من الشيخ سيد موسى ، و قد بدأ يأخذ منه التصوف و لم يتجاوز الدهلوي السنة الثامنة و العشرين من عمره، و ضريح الشيخ سيد موسى معروف في منطقة "أوش" في ملتان بضريح سيّد موسى الشهيد، و كان من أسرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

٣- بايع الشيخ عبدالوهاب المتقي من أقطاب مكة المكرمة و كان شيخاً للشاذلية من الطريقة القادرية كما كان شيخاً للطريقة الجشتية أيضاً.

٤- بايع الشيخ الخواجه باقي بالله الدهلوي في الطريقة النقشبندية و كسب الأوصاف لهذه الطريقة من الذكر و المراقبة و غيرهما.

٥- علاوة على مبايعته لهؤلاء الشيوخ الأربعة، فقد بايع الشيخ عبدالقادر الجيلاني أيضاً في عالم الرؤيا بحضور الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي بشّره بأنه سوف يكون شيخاً جليلاً و صوفياً يوماً من الأيام ـ و قد جاء ذكر هذه البيعة في كتاب "*زبدة الآثار* منتخب *بهجة الآثار*" على حاشية.

و اجتمع الشيخ الدهلوي بكثير من الشيوخ الآخرين الذين دعوا له بالبركة و التوفيق بالنجاح و أفادوه روحياً ـ و من هؤلاء الشيوخ الشاه أبوالمعالي رحمه الله و الذي سعد بزيارته و الاجتماع به في مدينة لاهور و لما همّ بالرجوع دار بينهما حديث ذكره الشيخ الدهلوي في كتاب: *المكاتيب و الرسائل* (ص: ٣٠٦) جاء فيه:

> " *قال لي يوم أردت العودة أن أحاول إكمال شرح المشكاة، الذى سوف يكون بمشيئة الله كتاباً يستفيد منه العالم أجمعه و عندما طلبتُ منه أن يدعو الله حتى يوفقني للإكمال، قال: إنه كاملٌ من ذى قبل ...* " .

و للشيخ كانت رغبةٌ قوية للشعر و كان يقرض الأشعار في بعض الأحايين

بإسم حقي، و من المعروف أنه قرض قصيدةً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم باللغة الفارسية و أنشدها أمام ضريحه في المدينة المنورة في عالم من الكيف و الجذب شديد. و مما جاء في القصيدة :

" لقد ساءت حالي في فراق جمالك يا رسول الله، فاعطني فرصةً لألقى نظرةً على جمالك و ارحم بذلك هذا العاشق الضعيف الحزين ".

يذكر الشيخ في كتابه: *زاد المتقين*، أنني حينما أنشدت هذا البيت من القصيدة، بدأت أكرره حتّى سادني نوعٌ من الوجد و الحزن و انفجـرت أبـكي و ربّما كانت هذه علامة لكون الشعر قد وجد باب القبول و الاستجابة لدى الرسول صلى الله عليه وسلم. يقول الشيخ في بيت لقصيدة أخرى: أين حقّي من أن يلازم أحداً و يرافقه، و قد دفعته فكرته عن صديقه أن يجعل العالم يفقد شعوره مثله . و قد قال في أبيات أخرى له:

لقد أصبحت حقي تعتني بالقصص و الأساطير، و أصبحت تعد من عامة العقلاء في هذا الزمان ! ماذا يعنيك ذكر الملوك و أنت من الفقراء ! لقد فُتِنتَ بالكلام و صرت مجنوناً !

المؤلفـــــات :

لقد ألّف الشيخ الدهلوي عديداً من الكتب و هو طالب و قبل أن يقوم برحلة لزيارة الحرمين الشريفين، و ظلّ يُولّف الكتب و يحرّر الرسائل باللغتين العربية و الفارسية بعد عودته من هذه الرحلة في ١٠٠٠ هـ إلى عام ١٠٥٢هـ الذي انتقل فيه إلى رحمة الله - و قد ذكر مؤلفاته و كتبه في كتيب إسمه *تأليف قلب الأليف بذكر فهرس التواليف*، و يبلغ عدد المؤلفات المذكورة في هذا الكتيب نحو ٤٨ كتاباً - وله كتاب آخر يشتمل على ٦٨ رسالةً و يُعـرف، باسـم: *كتاب المكاتيب و الرسائل إلىٰ أرباب الكمال و الفضائل* - و هذا الكتاب يقع في مجلدٍ واحد و قال عنه الشيـخ: " تعد هذه الرسائل كلها صحيفة واحدة " و هكذا، فإن عدد جميع مؤلفاته يكون ٥٠ رسالةً فحسب، إلاّ أن الشيخ نفسه ذكر في كتاب له أن مؤلفاته بلغت ٦٩ كتاباً و لذلك فإن عدد جميع مؤلفاته يبلغ ١١٧ كتاباً إذا أضفنا إلى هذه المؤلفات البالغ عددها ٦٨ كتاباً، ٤٨ كتاباً ذكر في كتاب *تأليف قلب الأليف بذكر فهرس التواليـف مـع هـذا الكتاب* نفسـه، و الذى قال فيه الشيخ:

" لم أنته بعد من التأليف و التصنيف، و الله وحده يعلم إلى أي حد سيدفعنا كرمه و فضله في المستقبل إلى الأمام؟ "

و هذا يدلّ على أن الشيخ ظلّ يُؤلّف حتى بعد إعداد هذه القائمة أيضاً، و للأسف فإننا لم نستطع معرفة الكتب التي قام بتأليفها فيما بعد - و يقول الأستاذ بركت، صاحبُ *مرآة الحقائق*، و هو من أحفاء الشيخ الدهلوي أيضاً، إنه وجد في مكتبة الأستاذ أنوارالحق الدهلوي نحو ١١ كتاباً للشيخ لم يُذكر في قائمة المولفات التي أعدها هو بنفسه. فإذا أضفنا هذه الكتب إلى مؤلفات الشيخ يصل عددها إلى ١٢٨ كتاباً، و من الممكن أن تكون هناك كتُب أخرى له أيضاً.

قال الشيخ الدهلوي إن سطور جميع مؤلفاته بلغت حوالى خمس مائة ألف سطر، و هو يظن أنه إذا نال بعض هذه السطور الاستحسان و القبول لدى الربّ العزيز القدير، فإنه سينال بغيته و إلاّ فإنه لا يرجو منها فائدةً تُذكر و يظن أنه قد أضاع نفسه و قتل وقته - فهدفه ليس إلاّ ابتغاء مرضاة اللّه و طلب كرمه. و بهذا يمكن أن نعرف كم من أرباب الفضل و الكمال و العلم حملتها أرض دلهي على صدرها و قد أحسن شاعرنا المولانا حالي و أجاد حينما قال عن هذه المدينة العامرة بخزائن العلم و الكمال:

> "*تجد أن كل قطعة من الأرض هنا تحمل في بطنها درة منقطعة النظير، و لم تدفن مثل هذه الخزائن في أي مكان آخر غير دلهي*"

لقد أصبح العالم اليوم خالياً من أمثال هؤلاء الناس و لم يعد يوجد فيه ذلك العلم و لا تلك الرغبة القوية إلى كسبه و لا أصحاب العلم و الفضل و لا أرباب القلم و اللسان، و مع ذلك، فإنه مازالت هناك في الهند شخصيات تعتبر نعمةً من اللّه سبحانه في هذا الزمان و لا أدري إلى أي اتجاه يسير العلم و العمل في المستقبل.

مكتبة الشيخ :

ذكر صاحب كتاب *مرآة الحقائق* أن المولوي أنوارالحق الدهلوي، الذى كان من أبناء الشيخ و توفي عام ١٣١٩هـ كانت لديه مكتبة توجد فيها جميع مؤلفات الشيخ الدهلوي غير الثلاثة عشر كتاباً ضاع في ثورة ١٨٥٧م، و نذكر أسماء هذه الكتب فيما يلي:

١ – المطالعة و المناظرة
٢ – أسماء الأستاذين
٣ – الأفكار الصافية
٤ – انتخاب المثنوي
٥ – بناءُ المرفوع
٦ – ترغيب أهلِ السعادة
٧ – تعليق الحاوي
٨ – حاشية الفوائد
٩ – حسن الأشعار
١٠ – الرسالة النورانية السلطانية
١١ – صحيفة المودة
١٢ – فصول الخطب
١٣ – نكات العشق

و لست أدري هل توجد هناك نُسخٌ أخرى لهذه الكتب الضائعة أم لا، و معظم مؤلفات الشيخ الموجودة في مكتبة الأستاذ أنوار الحق قد تم تدوينه و كتابته في ذلك الزمان نفسه - حتى أن المؤلف الشيخ المحقق الدهلوي هو الآخر قام بكتابة الحواشي على بعض الكتب، أما كتابه *الأنوار الجلية*. فقد قام الشيخ بكتابته كله من أوله إلى آخره بيده - و قد وجد بعض هذه الكتب سبيلها للنشر بينما بقي معظمها غير مطبوعة.

الأعمال اليومية :

نذكر فيما يلي خلاصة ما حرّر الأستاذ محمد أمين، صاحب كتاب "*شاه جهان نامه*" و أحد معاصري الشيخ عن الأعمال اليومية له:

> " *لقد بلغ الشيخ في ١٠٤٧هـ تسعين عاماً من عمره، و مع ذلك فهو لا يزال يتمتع بسلامة الحواس الظاهرة و الباطنة و يقوم كالشباب بأعمال التصنيف و التأليف و التصحيح و العبادة و الذكر و تلاوة القرآن الكريم و تعليم أبنائه و تلامذته و تربيتهم* ".

الوفاة :

توفّى الشيخ في الليلة المتخلّلة بين ٢١ و ٢٢ من شهر ربيع الأول في ١٠٥٢هـ عن عمرٍ يناهز شهرين و ٩٤ عاماً و دُفِن بالقُرب من ضريح الخواجه قطب الدين بختيار الكاكي، و كما أوصي قبيل وفاته، فقد قام نجله الأستاذ نور الحق الدهلوي بنصب لوحةٍ على ضريحه تلقي ضوءاً على حياته بإيجاز.

كان للشيخ الدهلوي ثلاثة أولاد من الذكور أكبرهم كان يدعى الشيخ نور الحق الدهلوي، و كان رجلاً ذكياً متوقد القريحة محبباً لدى والده الجليل و قد خلف أباه في العلم و التصوف و ألّف مثله عديداً من الكتب و الرسائل - و ظلّت أسرته تخرّجُ رجال الأقلام من الكتاب و المؤلفين إلى أن جاء عهد الإنجليز و مال فيه رجال هذه الأسرة إلى كسب العلوم العصرية الحديثة كعامة الناس. و يتحدّث كتاب *مرآة الحقائق* عن حياة أفراد أسرة الشيخ الدهلوي الذين بلغ عددهم نحو ٩٢ شخصاً من الكبار و الصغار - و قد وجدت معظمهم من رجال الحكومة و موظفيها غير الاثنين اللذين كانا يسيران على درب جدهما الجليل الديني و العلمي و هما الشيخ أنوار الحق الدهلوي و الأستاذ محمد مظهر الحق بن محمد وحيد الحق الذي ورد عنه في الكتاب أنه تخرّج من الجامعة الإسلامية دار العلوم بديوبند

تعريب: خالد القاسمي